المولد . كان يعتبر انه ليس ادنى إلا من العائلة المقدسة وحدها ، اما غالبية نبلاء المولد فإنما يرتبطون كلياً به ومن ليس له هـذا الارتباط يعتبر من سقط المتاع ومن الصعب أن يشعر القيصر بوجوده . لم تكن تفتنه التقاليد . ولم يكن يتأثر بقول أن المكانة التي يحتلها الجد في الجيش يجب ان تحدد مكانة الحفيد . كان يحب النقاش والاثارة . وكان يسمح للناس بالعصيان كي يتمكن من الاستماع الى دفاعهم وأن يرد عليهم قبل تسليمهم للجلاد .

ولكن ايمانه بذنب الناس كان يتعاظم بعد اعـدامهم . فما لم يكن إلا عنادا أو خروجا على الطاعة يتحول في ذهنه الى خروج عن الولاء حتى ينقلب بعد ذلك الى خيانة . كان يلوي يديه من اليأس ويتساءل : « ما العمل عندما يكون المرء محاطا بالخونة مثلي ! » . وكان في الوقت نفسه مقتنعا بفساده الشخصي ولكنه ينظر إلى خياناته الزوجية وشراهته على انها خطاياه الرئيسية . ومن المحتمل انه كان مقتنعا لبعض الوقت قناعـة جازمة بأن القيصر لا يمكن أن يقوم بأعمال إجرامية ، ولذلك فإنه قلما ندم على قتله لأحد . كان يؤمن بهـذه الفكرة المجنونـة بأن الموت الذي يفرضه هو كان شرفا أو تضحية مستساغة لله ويكن احتقارا كبيرا لأولئك الذين يفرون من الشهادة . فتعذيب الضمير والشعور بالذنب على الدم المراق كانا بعيدين عنه كل البعد .

وفي عامي ١٥٧٤ ــ ٧٥ أضحى القتل شيئا مألوفا وكثير الحدث . وكانت هذه الحقبة فترة مظلمة في تاريخ إيڤان العائلية لأن خياله قصّر عن ابتداع الجديد من الأمور . وتسبب إلغاؤه للأوبريتشينا في قيام هذا التنافس على مكان الصدارة . ولكن تفاصيل هذا التنافس الذي لا ينتهي وما قام به القيصر من إعدامات وأعمال نفي وما أحرزه من انتصارات وما تسبب به من اهانات كل ذلك أقل أهمية من دراسة الحالة العقلية لإيڤان . فقد اجتاحته شيخوخة مبكرة . وكان النزاع أكثر حدة بين اضطراب حواسه ورغبته في أن يصبح راهبا وأن يتخلى عن العالم والشهوات .